التقاليد ويسخر به ، ويتحدث عن الحياة وقضيتها ، ويتكلم عن الأيام والساعات والدقائق والثوانى ، وهى ماضية سراعاً ، ونحن ماضون معها لا نستطيع لها رداً . فلا نستطيع لأمر وقفاً ولا تغييراً

لست أدرى فيم علمنا وفكرنا إن جعلنا تيار الساعات والدقائق راضين بكل واقع مستسلمين لكل حدث . إنما يذهب التيار بالأجسام الجامدة أو الميتة ، فأما الحى فلا يستسلم للتيار وبه قوة ، ولا يرضى الغرق وفيه رمق .

إن علينا أن نسيطر على الخليقة ونسخرها كما تشاء جهد طاقتنا ، وإن علينا أن نسيّر الحياة بعقولنا وعلومنا ، وأن نقهرها لإرادتنا ما استطعنا . فما هذه الدعوة إلى الاستسلام بل المضىّ إلى الموت ؟ وما هذا الخنوع للعبودية باسم الحرية ؟

إن الاستبداد قبيح فى كل صوره ؛ ولكنه أقبح ما يكون حين يصيب النفوس ، فتخضع للواقع ، وتحتج بسير الزمان . إن الحر يفكر ويقول ويفعل كأن إرادته من قضاء الله ، وجهاده من قدرة الله ، ساخراً بسلطان الزمان والمكان — ليخلق تاريخاً ، وينشئ جيلا ، ويسير الزمان والمكان . وهل خلد فى تاريخ البشر إلا من تصدى للباطل يدمغه بالحق ، وللشر يغلبه بالخير ، وللفساد يمحوه بالصلاح ؟ وهل دعا نبى أو نادى مصلح إلا بعد التيار الجارى ، ورد الأحداث السائرة ، وتغيير السيرة الفاسدة .

إن الذى يريح نفسه وعقله من تكاليف الإصلاح ومشقة الجهاد يساير الزمان ، ويحتج بالمكان ، ويمضى مع الماء أو الريح ؛ ولكن الضعفاء يحملون كل عبء ، ويعانون كل مشقة ، ويستصغرون كل هول ، ويسخرون من كل سخرية ، ليثبتوا بالحق وفى الحق على مضى الأيام والساعات والدقائق والثوانى كالطود فى مجرى السيل ، والحق فى متترك الأباطيل .

يا أخى الزيات : إنها لفتنة ، وإنها لمحنة . وسيمضى الأحرار لا السبيد ، يقولون ويفعلون ويجاهدون حتى يبلغوا غايتهم أو يقضوا نحبهم على السبيل قاصدين وعلى الله متوكلين .

وإنى لأدعوك وأمثالك من الفئة القليلة الناصبة للحق ، الناصرة للخير ، إلى الكتابة ، والصدع بالدعوة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأداء الأمانة ، على رغم الزمان ، وعبيد الزمان .

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

(الاسكندرية) عمر الدسوقى عزام

صور من الحياة :

جنـــة الشيطان !

للأستاذ كامل محمود حبيب

« يا لهوم البحر ... سلخك من ثيابك جزار ! »
مصطفى صادق الرافعى

لشد ما شاقنى أن أقضى ساعة من العمر إلى جوارك — أيها البحر — ساعة أفزع فيها من وقدة القيظ إلى رطيبك النضر الرطيب ، أسعد بالراحة من عناء العمل ، وأسكن إلى الهدوء من صخب الحياة ، وأتحلل من دواعى العيش ، وأنفض وعثاء الطريق! فأنا — دائماً — أجد فيك هدوء البال ، وراحة النفس ، وصحة البدن — إننى ما زلت أذكر يوم اللقاء الأول — أيها البحر — يوم أن كنت فتى غضّ الإهاب ، رَيّق العود ، بسّام الخواطر ، لا تشغلنى نوازع الحياة ، ولا ترمضنى سفعات الرزق ، لا أرى الدنيا سوى متعة الروح ولذة القلب وفرحة النفس — ورأيتك — لأول مرة — فراعنى موجك الثائر وهو يتلاطم فى قسوة ويتهارش فى عنف ، وأزعجنى هديرك الصاخب وهو يتصاعد فى عنفوان لا يهمد ، وأخذتنى روعة المنظر الماثل حين كلّ البصر عن أن يحيط بنواحيك ، وحين عجز الخاطر عن أن يلم بأطرافك ، وسحرتنى الشمس وهى تكاد تتوارى خلف الأفق ، فتندفع تبكى أفولها بعبرات من دم أحمر قان يتألق على صفحة اللجة التى توشك أن تتردّى فيها — فوقفت أتأمل فى صمت ، وقد غلبتنى الحيرة ، وسيطر علىّ الذهول — فما استطاعت الكلمات أن تتحدث عن بعض خلجات فؤادى ، لأن عالمك أدهشنى يوم اللقاء الأول ، أيها البحر — وكنت حينذاك شاباً مزباً أحتال للأمر فأنفذ إليه فى غير عناء وأبلغه فى غير عنت . وللشباب أساليب شيطانية ماكرة تؤرثها عزيمة جياشة لا يعبث بها وهن ولا يقعدها ضعف ، فانسربت فى مسالك الطيش أنعم بأفانين اللذة وأرشف رضاب السعادة ، هنا — هنا على شاطئك الجميل الجذاب ، أيها البحر .

والآن — وقد انطوت سنوات وسنوات منذ يوم اللقاء الأول — ما زلت أحس بالذكرى الرفافة تنقد فى خاطرى ، لأننى كنت شاباً مزباً أحتال للأمر فأنفذ إليه .

واليوم جئت إليك بقلب الرجل وعقل الفيلسوف ، فماذا رأيت فيك ، أيها البحر ؟

وجلست بإزائك أياماً استشف حكمتك من خلال الموج وأقرأ خواطرك من ثنايا الزبد وأتسمع كلماتك من بين الصخب ، وإن فلبي ليفتقد جمالك الأول لأنه شاب فلم يعد يحس سحرك القديم .

وأخذ القوم يفدون إليك أرجالا خلف أرجال وزمراً من وراء زمر ، فتملى لنظمهم على ضفافك وتلاشت نبرات صوتك الرقيقة خلال الضجة العنيفة على الشاطىء . فتاظك أن تعجز — وأنت عظيم — عن أن تسكت هذا اللجب ، فثار موارك واضطربت أمواجك ، ووقف الجمع حيالك ينظرون في عجب ومن أمامهم (الراية السوداء) تتقدمهم بالخطر العظيم . ثم استخفك الطرب حين رأيتك تظفر بهذا الجمع فتنفث في نفوسهم الفزع والرهبة ، فتثبرت أياماً تقهقه بضحكات ساخرة مخيفة ، وطالك ثورتك فرحت أحدث نفسي : « غداً ، حين ينفرط عقد الصيف ، يعود إليك — أيها البحر — الهدوء وتشملك السكينة لأنك تكون — إذ ذاك — قد نفضت عن نفسك هم هذا المشهد .

وسمعتك — أيها البحر — تحدثني من خلال ثورتك قائلاً :

« هذا الشاطىء كان هاجعاً يغط في نومه فلما دبت في جنباته أول سمات النشاط والحركة هب الشيطان من سباته العميق ينشر زخرفه على أعين الناس وهو يترنم بالنشيد الأرضي الساحر فانطلق الحشد صوبه يتهافتون على بضاعته في غيروعي ولا عقل ، وما زخرف الشيطان إلا اللذة والشهوة والفجور ...

« هذا الشاطىء هو الجنة الشيطانية التي تضم ألف آدم وألف حواء ، ولكنها لا تضم عن نبتة واحدة ولا تزدهر بثمرة ، إلا ورقة التوت ... ورقة صاغها الشيطان بيده الصناع ليتوارى خلفها ثم يندفع من بين ثناياها ببذر غراس الإثم في القلوب الفاجرة فتؤتي أكلها — بعد حين — ندماً وحسرة . والشاطىء في الصيف ملعب الفجور ومسرح الفسق ومرتع الغي

« لا عجب ، فإن حرارة الشاطىء لا تصهر إلا الفضيلة والإباء ، وإن ماءك — ماء البحر الملح — لا يغسل إلا الشهامة والكبرياء ، وأن نسيمك اللطيف لا تريح من الأنفس سوى الأنفة والعفة ! ...

« هذه الجموع البشرية السارية جاءت تطلب الصحة والعافية والجمام فارتدت في حمأة الرذيلة ، وتلك النظرات الزائغة تطوف بأرجاء المكان وفيها نهم ما يشبع وبها قحة ما تترفع ، وهي — دائماً — لا ترعوي من حياء ولا ترتدع من خجل . وهذه المبادئ الإنسانية تنحط إلى حيوانيتها حين تتعرى من الدين والشرف

« إني أتقزز من هذا الفتى الذي جاء يغسل قاذورات جسمه ليكشف عن أدران نفسه

« وأمقت هذه الفتاة الطائشة حين تنقلت — بين الحين والحين — من بين يدي الرقيب ، وهو هين لين ، لتسمر ساعة إلى فتى من فتيان الشاطىء ؛ تعرفت إليه في ثورة من ثورات القلب ، واطمأنت إليه في ثورة من ثورات الشباب ، فاغترها بحديثه ، وخلبها بشبابه . والتاث عليها الأمر فعميت عن أن تراه وهو يجرها إلى هاوية من العبث والخطيئة ، والشيطان من بينهما يُزوق الحديث ويمهد السبيل » . وقلت لي ، أيها البحر :

« أما هذا الرجل ، فهو قصة الشاطىء وروح الشر وبلاء الإنسانية . هو رجل جاوز سن الشباب ، فلمست في فوديه شعرات بيض علامة العقل في رأس أحمق ، وعبثت أنامل الأيام بنضارته فسطرت خطوط الزراية على جبين فارغ . هو أب وزوج ، ولكن أنانية عاصفة دفعت به إلى هنا ليعيش وحده عمراً من عمره يبتغي الفراغ من أعباء الحياة وينشد الراحة من قيود الأسرة ويطلب النجاء من أغلال الدار . ومن ورائه زوجته وأولاده يتلهبون في لظى القاهرة ، ويتحرقون في عذاب الوحدة ، ويتقلبون في ألم الفراق

« وبهره منظر البحر وهو يموج في آذيه ، وخلبته هبات النسيم وهي عليلة ندية ، وسحرته الأجسام العارية وهي تتألق في ضياء الشمس ، ووسوس له الشيطان فانطلق الرجل في تيهانه يذرع الشاطىء وإن في جنبيه الظمأ والفجور

« يا لتعسة الإنسان إن خلع إنسانيته ليصبح وحشاً كاسراً لا يؤمن إلا بشريعة الناب والظفر !

« واطمأن الرجل — بعد لأي — إلى فتاة من فتيات الشاطىء — فتاة في ريعان الشباب ورونق الحياة وجمال الأنوثة ، تقضي سحابة يومها بين طفلين تحت مظلة ، فهو يرمقها بنظرات شرهة جائعة ، وهي تختلس إليه نظرات متكسرة . وابتسم هو وابتسمت . ثم انطوت الأيام فإذا الفتاة قد أسهلت وانقادت ، وإذا هي إلى جانب صاحبها يتحدثان في غير رقبة ولا حذر وهم أنها زوجة وأم ؛ زوجة موظف صغير طارت عن بيته لتنعم هنا بالحرية بين طفليها . لقد نبذت زوجها هناك في القاهرة يذوق مرارة الوحدة والحرمان في الدار ، ويمضي عنت العمل في الديوان